قضية القدم والحداثة

برزت في النقد العربي القديم ثنائيات في شكل قضايا نقدية شغلت النقاد العرب القدامى ،كقضية اللفظ والمعنى ، والطبع والصنعة ، والقديم والمحدث ، كانت انعكاسا لازدواجية الخطاب الفكري العام الذي أفرزته طبيعة الحياة في ذلك العصر ،حيث قضية العقل والنقل ، والشريعة والفلسفة،والجبر والاختيار،والتوفيق والاصطلاح وما إلى ذلك.

وأزعم أن قضية القدم والحداثة في الشعر ماهي سوى انعكاس للثنائية التي سادت الخطاب الفكري في تراثنا العربي بين العقل والنقل.

والحقيقة أن قضية القديم والحديث من القضايا النقدية الشائكة القديمة المتجددة باستمرار، ذلك أن كل قديم كان في عصره جديدا ، وكل جديد سيصبح بمرور الزمن قديما، عرفت هذه القضية في الآداب الأجنبية،كما عرفت في الأدب العربي قديمه وحديثه،وهي قضية لا تقتصر على الآداب أيضا،بل إنها تمس العادات والأخلاق والتقاليد والأطعمة والألبسة،ومختلف مظاهر الحياة المادية منها و المعنوية،ففي طباع بعض الناس ميل شديد إلى كل ما هو قديم متوارث ،وفي طباع آخرين انفتاح يجعلهم يتقبلون كل ما هو جديد،ويرحبون به.

وإذا ألقينا نظرة على الأدب العربي القديم وجدناه ينقسم إلى عهدين ؛ عهد القدماء، وعهد المحدثين ويبتدئ عهد القدماء بنضوج الشعر قبل الإسلام بقرن أو نحوه كما ينص على ذلك الجاحظ ،وينتهي في أوائل القرن الثاني الهجري،فهو يشمل الأدب الجاهلي والإسلامي والأموي،أما عصر المحدثين فيبدأ قبيل قيام الدولة العباسية بفترة وجيزة مع بشار

بن برد ، ومروان بن أبي حفصة،ومطيع بن إياس وغيرهم ممن عاشوا في أواخر العصر الأموي وأوائل العصـــر العباســـي لذلك سموا بمخضـــرمي الدولتين،ويشـــمل كل من جاء بعدهم من الشعراء[1].

فما الذي يميز عهد القدماء عن عهد المحدثين ؟ وما هي الظروف الحضـــارية التي أدت إلى وجود هذه الثنائية التصادمية في تاريخ الشعر والنقد العربيين؟

لقد كان الشاعر العربي القديم يفتتح قصيدته بالنسيب،وذكر الأحبة ،والوقوف على الديار العافية،وتذكر العهود الخالية ،ثم يأخذ في وصـــف الرحلة والســـفر، وما قطع من مفاوز،وما تجشم من أهوال،ويخلص من ذلك إلى غرضه من القصيدة من مدح أو فخر أو هجاء ،وأحيانا يختم كلامه بشيء من الحكمة المستمدة من نظراته في الحياة.

فلما جاء الإسلام لم يتغير نهج الشعر العربي،وظل الشعر الإسلامي ينسج على طريقة الجاهليين في معانيه وألفاظه[2]،وظلت القصـــيدة العربية محافظة على بنائها الفني الذي عرفته في العصر الجاهلي،واستمر الأمر كذلك ردحا من العصر الأموي ،إلى أن جاء العصر العباسي فاشتدت الصلات بين العرب والأمم الأخرى بالمجاورة والمصاهرة ،ونشطت حركة الترجمة،وازدهرت العلوم و المعارف،ومال المجتمع العربي نحو البذخ والترف والأخذ بأســـباب الحضارة والتمدن ،فتبدلت الحياة الاجتماعية تبدلا جذريا،وابتعد الناس عن خشونة البداوة ، وأقام كثير من الشعراء في الحواضر الإسلامية المختلفة،وتغيرت العادات والأخلاق،فانتشر المجون وشاعت الزندقة ،وعم الجهر بالفسق،وكان من نتيجة هذه الثورة الاجتماعية العارمة ثورة أدبية أيضا سايرت الحياة الجديدة وعبرت عنها.

---

[1] ينظر تاريخ النقد الأدبي عند العرب:طه أحمد إبراهيم ،ص: 88

فقد جاءت الحياة الجديدة بالإكثار من شعر اللهو والمجون والاستهتار بالشراب،وجاءت بالغزل بالمذكر،ووصف القصور والرياض ومجالس الأنس والطرب[3]،ولم يعد من اللائق ــ في عرف الشعراء المحدثين ــ أن يفتتح الشاعر قصيدته بالوقوف على الأطلال، ووصف الدمن والآثار،إذ لابد من الانصراف عن هذه المطالع القديمة،والتفكير في شيء جديد ملائم للحياة الحضرية الجدية،وهو ما اهتدى إليه أبو نواس في وصف الخمر والندامى ومجالس الشراب،هذا من حيث المضمون،أما من حيث الصياغة فقد مال المحدثون إلى التفنن في ضروب البيان والبديع،واستعمال الألفاظ الرقيقة السهلة التي تناسب رقة الحضارة،بعد أن كان الجاهليون ينحتون ألفاظهم الجزلة القوية من البيئة البدوية لخشونتها.

هذه الثورة الشعرية التي قام بها المحدثون أثرت تأثيرا واسعا في الشعر وفي النقد ، فقد انقسم النقاد إزاءها طائفين؛طائفة تتعصب للشعر القديم،وأخرى تتعصب للشعر المحدث، ومن أبرز المتعصبين للقديم علماء اللغة والنحو،فقد كان هؤلاء يأخذون اللغة من فصحاء الأعراب،ومن البادية،وكانوا مشغولين بجمع الشعر الجاهلي و الإسلامي،فأثر ذلك في أذواقهم،فلم يستسيغوا أشعار المحدثين،ومن هنا كان تعصبهم للشعر القديم،بل إننا نجد منهم من يبالغ في تعصبه فلا يرى الشعر إلا ما قاله الجاهليون مثل أبي عمرو بن العلاء الذي يقول :"لو أدرك الأخطل يوما واحدا من الجاهلية ما قدمت عليه أحدا"[(4)]، فهو هنا يحكم على العصر لا على الشعر،وقال أيضا:"لقد كثر هذا المحدث وحسن حتى لقد هممت

---

[3] ينظر تاريخ النقد الأدبي عند العرب:طه أحمد إبراهيم ،ص: 91

[4] -الأغاني: للأصفهاني ،284/8.

بروايته"[5]،وقال عنه الأصمعي:"جلست إليه ثماني حجج فما سمعته يحتج ببيت إسلامي"[6] ،كما نجد ابن الأعرابي يهاجم أشعار المحدثين ويقارنها بشعر القدماء في صورة تشبيهية فيقول:"إنما أشعار هؤلاء المحدثين–مثل أبي نواس وغيره–مثل الريحان يشم يوما ويذوي فيرمى به،وأشعار القدماء مثل المسك والعنبر كلما حركته ازداد طيبا"[7]، وأنشده رجل يوما شعرا لأبي نواس أحسن فيه،فسكت،فقال له الرجل:أما هذا من أحسن الشعر؟ قال:بلا ولكن القديم أحب إلي"[8] ،واجتمع ابن مناذر الشاعر في مأدبة مع خلف الأحمر،فقال لخلف:يا أبا محرز،إن يكن النابغة وامرؤ القيس وزهير قد ماتوا فهذه أشعارهم مخلدة ، فقس شعري إلى شعرهم ، واحكم فيه بالحق ، فغضب خلف ، ثم أخذ صحفة مملوءة مرقا فرمى بها عليه[9].

إن هناك عوامل جعلت هؤلاء العلماء يتعصبون للشعر القديم منها:

1–أنه اكتسب قيمة تاريخية في عصر التدوين إذ كان في الجاهلية " ديوان علمهم ، ومنتهى حكمهم ، منه يأخذون ، وإليه يصيرون "[10] ، وأنه حفظ للعرب " ذكر أيامها وما آثرها...وما ذهب من ذكر وقائعهم"[11].

2–أنه كان يلبي مختلف أذواق المثقفين في ذلك العصر، يجد فيه النحاة الشواهد الإعرابية،ويجد فيه رواة الأشعار غريب اللغة،ورواة الأخبار الشاهد والمثل .

---

[5] –الشعر والشعراء:لابن قتيبة ،ص:23.

[6] –العمدة: 90/1.

[7] –الموشح :للمرزباني،ص:384.

[8] –الموشح،ص:384.

[9] –الموشح،ص: 453.

[10] –طبقات فحول الشعراء :لابن سلام الجمحي،ص:24.

[11] -طبقات فحول الشعراء ،ص:46

وبقدر غض علماء اللغة والنحو من المحدثين كان غض الشعراء المحدثين من القدماء،فهذا أبو نواس يندد بالقدماء،ويسخر منهم في العديد من قصائده كقوله:

لا تبك ليلى و لا تطرب إلى هند واشرب على الورد من حمراء كالورد

وقوله:صفة الطلول بلاغة القدم فاجعل صفاتك لابنة الكرم

وقوله:عاج الشقي على رسم يسائله وعُجت أسأل عن خمارة البلد

وهكذا نلاحظ علماء لغة محافظين يتعصبون للقديم،ويرون فيه المثل الأعلى،وشعراء محدثون يريدون فرض أنفسهم،والتمكين لحركتهم التجديدية ،فيدافعون عنها بمهاجمة القديم.

ويحق لنا الآن أن نتساءل عن موقف النقاد الموضوعيين من هذه القضية؟

لقد وقف النقاد موقفا توفيقيا ،فرأوا أن المقياس الذي ينبغي أن يعتد به في الحكم على هذا الشعر أو ذاك هو مقياس الجودة الفنية لا المقياس الزمني المتمثل في القدم أو الحداثة ، على نحو ما يتضح في قول الجاحظ: "وقد رأيت أناسا يبهرجون أشعار المولدين،ويستسقطون من رواها،ولم أر ذلك قط إلا في راوية للشعر غيربصير بجوهر ما يروي،ولو كان له بصر لعرف موضع الجيد ممن كان، وفي أي زمان كان"[12]،وهو الأمر الذي جعله يفضل قصيدة لأبي نواس على قصيدة للمهلهل في الشاعرية.

[12] -الحيوان :للجاحظ،130/3.

ويتضح الأمر أكثر مع ابن قتيبة الدينوري حيث يقول:"ولا نظرت إلى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه،ولا إلى المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره،بل نظرت بعين العدل على الفريقين،وأعطيت كلا حظه، ووفرت عليه حقه،فإني رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله،ويضعه في متخيره،ويرذل الشعر الرصين،ولا عيب له عنده إلا أنه قيل في زمانه، أو أنه رأى قائله ،ولم يقصر الله العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن ، ولا خص به قوما دون قوم،بل جعل ذلك مشتركا مقسوما بين عباده في كل دهر،وجعل كل قديم حديثا في عصره"[13]، فابن قتيبة يتفق مع الجاحظ في المذهب الذي يريد أن يجعل الجودة مقياسا للشعر دون اعتبار للقدم والحداثة.

وأما ابن رشيق فقد خص هذه القضية بباب كامل في كتابه العمدة أطلق عليه عنوان" باب في القدماء والمحدثين" استهله بالإشارة إلى أن كل قديم هو محدث في زمانه،وكل حديث سيؤول فيما بعد إلى قديم بالنسبة لزمن لاحق،ثم أورد أمثلة لمن كانوا يتعصبون للقديم كأبي عمرو بن العلاء، وابن الأعرابي، ومن آمنوا بالتسوية والاحتكام للجودة كابن قتيبة، ليخلص من ذلك إلى طرح القضية من وجهه نظره فيقول:"مثل القدماء والمحدثين كمثل رجلين ابتدأ هذا بناء فأكمله وأتقنه،ثم أتى الآخر فنقشه وزينه، فالكلفة ظاهرة على هذا وإن حسن، والقدرة ظاهرة على ذلك وإن خشن"[14] ، فالشعر الجيد في نظر ابن رشيق هو الذي يجمع بين أصالة القديم،ومعطيات الجديد،ذلك أن الشعر بمثابة البناء لا يكتمل جمال صورته إلا بإتقان بنائه وتناسق زينته وزخرفته ،ولا يخفي ابن رشيق أنه بهذا الرأي يتابع أستاذه عبد الكريم النهشلي الذي يعتز بإيراد فصل له في هذه القضية يقول

---

[13] -الشعر والشعراء :لابن قتيبة،ص:23.

[14] -العمدة:92/1.

فيه:"قد تختلف المقامات والأزمنة والبلاد فيحسن في وقت مالا يحسن في آخر، ويستحسن عند أهل بلد مالا يستحسن عند أهل غيره"[15].

وبذلك ينظم ابن رشيق إلى قافلة التوفيقيين من النقاد الذين نظروا إلى قضية القدم والحداثة في الشعر نظرة موضوعية، فهم يضيفون الجيد والرديء للقدماء والمحدثين على حد سواء،مصداقا لقول الشاعر:

قل لمن لا يرى المعاصر شيئا ويرى للأوائل التقديما

إن ذاك القديم كان جديدا وسيغدو هذا الجديد قديما

[15] -العمدة:93/1